



للحضارة في تاريخنا سفر و لا أضخم، إنها نهرٌ عظيم بعض رواده منجزات أجدادنا و عطائهم في شتّي مجالات العلوم، وبعضاً إسهام إنسان هذا العصر، ذلك أنّا في مضمون الحضارة نضيف كلَّ يوم لبنة جديدة، و نعتبر اسهاماتنا الكنز الإنساني الذي لا يفنى، و ننطلع دوماً إلى إغناء التراث الإنساني و ترك بصمات يشهد عليها التاريخ لتكون عنصر التغيير في الحركة التاريخية التي لا تعرف السكون.

ولهذا كان علينا أن نحافظ على تراثنا الحضاري الإنساني كأمانة في أعناقنا، يحمل ملامح هويتنا الحضارية و يعكس روح الوطنية الحقة. و لهذا كان كلَّ من يحاول تقويض أركان هذه الحضارة الفذّ مجرماً لا تقلُّ جريمة ضراوة عنْ يغتال الروح الإنسانية. فأيّ صفة يمكن أن نطلق على جحافل الحكومة الأسدية المستأسدة على شعبها و قد أطلقت العنان لشياطين الإنس تدك بصواريختها و قذائفها مرابع طفولتنا و مدارسنا و بيوت عبادتنا المقدسة؟ مساجد و كنائس يناهز عمرها مئات السنين إن لم نقلآلافاً طالتها قذائف دمرتها و شوّهت معالمها، و عاثت فيها فساداً باسم أمن الوطن و باسم السيادة الوطنية. إن لم يكن لبيوت الله حرمة الله بنظرهم أفالاً يكون لها حرمة التاريخ و الحضارة؛ لكن كيف لمن لا أصل له أن يحافظ على الأصول و كيف لمن لا تاريخ له و لا مرجعية حضارية أن يحافظ على الحضارة؟ في سوريا الحضارة هناك موقع سومرية، وأخرى آرامية وفيينيقية ورومانية وبيزنطية، وهي في الأساس أرض الأمويين، وعليها ترك الصليبيون أكبر قلاعهم.

وحتى اليوم، لم تخسر سوريا هويتها التاريخية، فهل سيروم ذلك أم أنَّ الهجمة الشرسة ستطال الحجر كما طالت البشر؟ في حمص العدية، في بداية الثورة، حاول جنود التشبيح إثارة الفتنة الطائفية فراحوا يعتدون على الكنائس عامدين متعمدين لإيهام أهل حمص أنَّ هناك حرباً طائفية، فما كان من شباب المسلمين إلا أن هبوا لحماية الكنائس و شكلوا دروعاً بشرية تقف في وجه من يحاول تدنيس بيوت الله، أحدهات شهدتها أهل حمص حقيقة ملموسة جعلت الكثير من الشباب المسيحيين يتكتافون مع إخوانهم المسلمين بل و يصلّون معهم في المساجد، وأنذر حادثة رواها صديقٌ حدثت في رمضان الماضي أثناء صلاة التراويح، حيث شاهد شاباً يصلّي بين الجموع وقد تدلى الصليب في عنقه، راقبه بمحبة حتى أتمَّ صلاته بصمت الخشوع و بكى مع الباكيين أثناء دعاء القنوت. هذه هي اللحمة الوطنية الحقيقة التي عاشتها سوريا و تعيشها رغم محاولات

التفرقة والنيل من المقدسات. ومن المعروف أنّ انطلاق الثورة في بداياتها كان من الأماكن الدينية، لاسيما الجامع، وقد تم رصد اعتداءات سافرة وممنهجة من قبل العصبة الحاكمة في سوريا على أماكن العبادة ودورها وتجلّى هذا واضحًا في بعض الجامع المدرجة على لائحة الإرث الحضاري السوري. ونذكر على وجه الخصوص ما تعرض له كلّ من الجامع العمري في درعا والجامع العمري في بصرى، وهما يعودان إلى العصور الإسلامية الأولى ويُعتبران من روائع الآثار الإسلامية القديمة والمحفظة بتفاصيلها المعمارية وهيكلها الأصلي، وقد شيدا إبان الفتح الإسلامي لسوريا في أيام الخليفة عمر بن الخطاب، ومن هنا أتت التسمية. كما تم أيضًا **قصف الجامع العمري في مدينة درعا**. وفي حمص قُصفت المئذنة التاريخية لجامع كعب الأحبار ، في حي باب دربب، و**قصف** أيضًا الجامع التاريخي ورمز مدينة حمص جامع خالد بن الوليد (رضي الله عنه)، كما قُصفت مئذنة مسجد ذي الكلاع الأخرى في بستان الديوان، و قُصفت مئذنة مسجد أبي ذر الغفارى العريق، و مسجد باب تدمر و مساجد جورا الشياح التاريخية، و قُصف المسجد الأخرى في قلعة تلبيسة، و قُصف مسجد مصطفى باشا الحسيني الأخرى العريق و نال الدمار جزءاً كبيراً منه، و طالت قذائف الإجرام المسجد الكبير العريق في القصير، كما **قصف** الجامع الكبير في قلعة الحصن "السرايا" ، بالإضافة لقصف مباشر على جامع التوحيد التاريخي في قلعة المضيق، والذي يعود تاريخ بنائه إلى بدليات الحقبة العثمانية، وهو النموذج الأمثل للجوامع التاريخية في الوسط الريفي. وفي مدينة أريحا في إدلب، قُصفت المئذنة التاريخية لجامع التكية، و**قصفت** مئذنة الجامع القديم في سرمين وقد نالت الكنائس نصيبها من الدمار أيضًا. حيث اخترقت قذيفة جدار دير سيدة صيدنaya، ويعود تاريخ بناء هذا الدير إلى فترة جوستينيان، (الفترة البيزنطية الأولى) أي حوالي العام 547 بعد الميلاد، إضافة لقصف وتخريب كاتدرائية السيدة العذراء "كنيسة أم الزنار" للروم الأرثوذوكس الأخرى العريقة في قلب مدينة حمص و التي تعتبر مزاراً هاماً للسياح، و شاهداً حضارياً على العراقة الأخرى، و يعود تاريخ بنائها للفترة البيزنطية الأولى. و تعرضت كلّ من كنيسة مارجرجس و كنيسة مارليان و كنيسة الروم الكاثوليك، و كنيسة الأربعين، و الكنيسة الإنجيلية لقصف و الدمار أيضًا.

تعددت مظاهر الاعتداء على دور العبادة، حيث كانت تتمّ إماً عن طريق القصف المباشر لها، أو عن طريق التشويه المتعمد البعض عناصرها المعمارية، كما في حالة الجامع العمري بدرعا، حيث توغلت قوات الأمن والجيش إلى داخل حرمته، وقامت بالحفر والتخريب و وضع الأسلحة لإثبات مزاعمهم بوجود عصابات مسلحة تتخذ من دور العبادة مخابئ لها. و حولوا بعض دور العبادة إلى ثكنات عسكرية، و داسوا المصاحف الشريفة و كتب الإنجيل المقدس. ولا بد من التنويه إلى قيام بعض المسلمين باقتحام دير مار موسى الحبشي، بحثاً عن الأب المسؤول عن الدير و قاموا بنهبه ومن المعلوم أن دير مار موسى الحبشي، يعود تاريخ بنائه وبحسب وثيقة سريانية إلى العام 575 ميلادي، حيث تذكر الوثيقة بأنّ الدير تم إنشاؤه على أنقاض حصن روماني، وتم تحويله لاحقاً لكنيسة، أمّا آثار الدير الحالية فيعود تاريخها إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

وقد نشرت صحيفة الأخبار العدد ١٧٣٣ الجمعة ١٥ حزيران ٢٠١٢ مقالاً بعنوان "تراث سوريا وتاريخها في خطأ" قالت فيه أنّ الأخبار القادمة من سوريا سيئة وحزينة على كلّ الأصعدة. ففي «أرض الحضارات»، ثمة تاريخ عريق لم يسلم من الحرب الدائرة رحاحها منذ نحو عام ونصف عام، وأكبر المواقع الأثرية المدرجة من قبل منظمة اليونسكو على لائحة التراث العالمي باتت عرضة للرصاص والنهب. و ذكرت كاتبة المقال أنّبعثات الدولية المتخصصة في تحديد الضرر اللاحق بالمواقع الأثرية (كمنظمة الدروع الزرقاء أو بعثات منظمة اليونسكو) لم تتمكن من الدخول إلى سوريا لإعطاء تقرير مفصل عن وضع الآثار على الأرض. وما يصل من هناك يقتصر على معلومات تنشرها مواقع التواصل الاجتماعي، مثل الفيسوبوك والوكالة السورية للأنباء ونداءات المنظمات الدولية. وهي المعلومات نفسها التي عملت الباحثة إيرما كانليف من جامعة

دورهام البريطانية على تجميعها، لتنشرها في وقت لاحق منظمة «Global Heritage Fund» كأول تقرير مفصل عن وضع الآثار في سوريا. ويحمل التقرير عنوان «ضرر في الروح: تراث سوريا الثقافي في الصراع»، ويوثق في 50 صفحة الأضرار اللاحقة بالمواقع الأثرية بحسب مسبياتها، فهناك مناطق أثرية تعرضت للقصف، وأخرى استعملت كموقع عسكري وثالثة تعرضت لآلاف عمليات النهب المكثفة. وذكر تقرير إرما كانليف دير صيدنaya البطريركي، الذي طال القصف الجزء الأقدم منه الذي يعود إلى عام 574، وهو الذي يعتبر من أقدم الأديرة المسيحية المأهولة في العالم، كما تضرر الجامع الأموي في درعا، وهو من أقدم المباني الإسلامية في سوريا، إذ جرى بناؤه في الأعوام الأولى لفتح الإسلام بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب. وكانت المديرية العامة للآثار في سوريا قد أعلنت أن مباني أثرية في دمشق وحلب وحمص وبصرى وتدمير وقلعة صلاح الدين كانت هدفاً لأعمال إرهابية. كما قامت مجموعة ناشطين بإنشاء صفحة على الفيسبوك تثير مسألة حماية الآثار والتراث في سوريا، هدفها جمع المعطيات عن واقع الآثار، معتمدين على مصادر رسمية وغير رسمية. تحت عنوان «الآثار السورية في خطر»، حيث يحملون المعلومات والصور والفيديوهات التي توثّق الضرر الحاصل في المواقع الأثرية. وتهدّف هذه الصفحة، بحسب الفريق، إلى نشر الوعي حول المسألة للحفاظ على تراث سوريا. كذلك تحاول منظمات دولية إطلاق النداءات المطالبة بالمحافظة على المواقع الأثرية والتاريخية وعدم تحويلها إلى مناطق صراع. وأعربت اليونسكو عن قلقها على التراث الحضاري في سوريا التي تضم أكبر المواقع الأثرية المدرجة على لائحة التراث الإنساني العالمي للاليونسكو. كما نبهّ الانتربول الدولي عن عمليات تهريب لوحات فسيفساء من سوريا في 24 أيار الماضي، ونشرت صحيفة اللوفيغارو الفرنسية تقريراً بعنوان الآثار السورية في خطر في 15 حزيران الماضي، كما ناشد الصحفي الدقابسي المجتمع الدولي والمنظمات الإقليمية لاتخاذ إجراءات عاجلة لوقف المجازر وحماية كنوز سوريا الأثرية من القصف والتدمير والتهريب في مقالة نشرها في 10 حزيران الماضي.

كما أقام مثقفو ندوة وجهاً فيها نداءات استغاثة لحماية التراث الحضاري الإنساني في سوريا. وهانحن اليوم، باسم سوريا، وباسم كلّ الغيورين على الوطن، نوجه بدورنا نداءات استغاثة لحماية التراث الحضاري في سوريا ووقف عمليات التخريب الممنهج و الدمار المتعمم، وإنّ جريمة الاعتداء على حرمات التاريخ و العقيدة جريمة ضدّ الإنسانية جموعاً و يقع على عاتق المجتمع الدولي وقفها و محاسبة المتورطين فيها و محکمتهم. سوريا التي زهت بحضارتها، تبكي اليوم ماضيها المضاء، و تناشد العالم للحفاظ على منبع النور و الجمال و السلام و الإبداع، سوريا الجميلة الباكية.

المصادر: